نموذج المجادلة من البلاغة العربية
رؤى في نظرية أنماط النص
باسل حاتم

نموذج المجادلة من البلاغة العربية
رؤى في نظرية أنماط النص

باسل حاتم(*)

مدخل:

في بحث سابق[1] ناقشت المجادلة Argumentation نمطا نصيًا، ورأيت أن استعمالها في الإقناع كانت له خصوصية ثقافية. ترتبط المجادلة – مميزة عن العرض المجرد detached Exposition – ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالتأدب وحفظ ماء الوجه، وما يتصل بذلك من ظواهر لغوية اجتماعية أخرى. يساعد هذا في تفسير ميل بعض اللغات والثقافات إلى تبني أسلوب في المجادلة أكثر مباشرة. ومثال ذلك أن اللغة العربية المعيارية المعاصرة تكشف عن تفصيل خاص لشكل من المجادلة، يدافع فيه المجادل عن موقف بعينه أو يستنكره. وينتج عن ذلك ألا يبدي المجادل قبولاً مباشرًا بما يرحب به الخصم من معتقد. هذا الشكل الأخير؛ أي هذا النهج الذي يقوم على مجادلة ضدية صريحة صراحة أشد، هو الشكل الذي تفضله – على نحو خاص – لغات كالإنجليزية.

على أي حال، فمن الخطأ الزعم بأن المجادلة المضادة Counter Argumentation تباين نظام العربية البلاغي مباينة كلية. إن هدفي في هذا البحث هو البرهنة على هذه الدعوى، وذلك بفحص نموذج المجادلة الذي رسمه البلاغيون في كتاب "نقد النثر"[2]. وهدف هذا البحث الأخص، هو تقديم وصف مقارن للمجادلة في حدود توصيفها في مرحلة بعينها من مراحل تطور اللغة العربية والبلاغة العربية من ناحية، وفي حدود ما نجده الآن حقا في كيفية استعمال العربية من الناحية الأخرى. والمقارنة

(*) Hatim. B. (1990): A Model of Argumentation from Arahic Rhetoric: Insights for a Theory of Text Types. (1) British Society for Middle Eastern Studies. Bultin. 17. 1: 47-54

تنير العقل. في مجال الدرس البلاغي، نظر العلماء – عن حق – إلى العصر العباسي الذي كتب فيه كتاب "نقد النثر"، على أنه عصر الاستنارة الذي ازدهرت فيه عملية التلاقح بين الثقافات. على العكس من ذلك، تبدو صورة العربية المعيارية المعاصرة أشد قتامة. يرجع هذا إلى تأثير عدد من العوامل القسرية متضمنة عوامل سياسية اجتماعية؛ كالموقف من الحقيقة، وحرية الكلمة ونحوها.

في محاولة المقارنة بين أفكار العصور الوسطى وتطبيقاتها في العصور الحديثة، سأعمد إلى تحديد تعاملي مع الاستعمال الراهن للعربية، بأشكال من الأداء، من طراز المترجمات والكتابة الأكاديمية باللغة الإنجليزية. وفي تحليل هذا الصنف من التنوع اللغوي Language Variety تحليلاً فعليًا، ستصبح بؤرتي أضيق، حتى تركز على تلك الحالات من الفشل الاتصالي Communicative Breakdown التي نتجت مباشرة – من خلال تجربتي – عن الخرق أو عدم المناسبة النصية Textual Ineptitude التي ينبغي أن يلقى فيها باللوم على نظام تعليمي فقد الوعي والإحساس بتقاليد بلاغية ثرية.

مستقبل النص في البلاغة العربية القديمة:

كان البلاغيون العرب (مثل السكاكي ت ٦٢٦هـ)[٣]– وهم ورثة تقليد غني هو دراسة النص في السياق – كانوا سباقين إلى ملاحظة العلاقة الشرعية بين درجة التقويم degree of evaluation التي يصبغ بها منتج النص منطوقه والتي يخلعها على مستقبل النص، في حدود استعداده لتقبل القضايا المطروحة أو رفضها. ونحدد هنا ثلاثة أنماط خاصة للسياق هي:

(١) المنطوقات الموجهة إلى "منكر": وينبغي لها أن تكون منطوقات تقويمية evaluative على أقصى حد (من خلال التوكيد وغيره) وتعتمد درجة التقويمية على الدرجة التي يظهرها المنكر.

(٢) المنطوقات الموجهة إلى "متردد" وينبغي لها أن تكون تقويمية. وتعتمد درجة التقويمية – مرة أخرى – على الدرجة التي يظهرها غير المتيقن أو المتردد.

(٣) المنطوقات الموجهة إلى "خالي الذهن": وينبغي لها أن تكون منطوقات غير تقويمية unevaluative.

نجد هنا متوالية من الخطاب التقويمي العالي في طرف والخطاب الأدنى تقويمية في طرف آخر. ويصف النوع "متردد" الحالات الواقعة بين هذين النوعين. ولنجعل – في حدود نموذجنا اللغوي لأنماط النص – "المنكرين" و"المترددين" (نوعًا ما) لنجعلهم سواسية في التعامل مع النصوص التي تظهر درجات متنوعة من التقويمية، من خلال أشكال متنوعة من المجادلة. من ناحية أخرى، يتعامل "خالي الذهن" مع نصوص ترسم وصفًا أو سردًا أو تفسيرًا، على نحو موضوعي، من خلال أشكال متنوعة للعرض presentation[٤].

نموذج المجادلة في كتاب "نقد النثر":

بنى اللغويون المتأخرون على تلك التحليلات الواعية لمستقبل النص، وطوروا ما يمكن أن يجتذب أنظارنا بمعايير اليوم ذاتها على أنها نظريات متنوعة في نمط النص. ولكن من بين المصادر التي أوحت بمثل هذا العمل في فن المجادلة عمل أقدم، هو العمل المسمى باسم "نقد النثر". وربما كان كتاب "فن البلاغة" لأرسطو[٥] هو صاحب التأثير الأهم في فكر مؤلفه. لقد فهم قدامة فكر أرسطو وطبقه على الشعر العربي. ومن ثم تبنى قدامة محاولة من أقدم المحاولات عند البلاغيين العرب في ربط النص بالسياق، وجعل المطابقة بين منطوق المتكلم وسياقه النّصي أمرًا ضروريًا. صارت البلاغة "إنتاج المنطوقات إنتاجًا يضع المعاني المقصودة عبر اختيار صيغ التعبير الأكثر تأثيرًا والمرتبة ترتيبًا نظاميًا والفصيحة فصاحة لغوية" [٦].

ولكن مؤلف "نقد النثر" لم يبق أبدًا أسير النموذج الأرسطي. لقد استخدم في عمله عن المجادلة – مثلاً – مبادئ عامة تناظر ما طرحه الخطباء وعلماء الدين المسلمون مستمدة استمدادًا قويًا من القرآن والحديث ومن أعمال كثير من الفلاسفة وكتاب الدواوين. لقد طمحت البلاغة الجديدة إلى وصف ما يصنع الخطيب الحق أوالكاتب الحق أو الشاعر الحق: وضوح التفكير، وفصاحة الكلام، والقدرة على التعبير عما يجول في عقله وقلبه تعبيرًا مونقًا مختصرًا. وكان مما بحثه قدامة أيضًا وسائل التعبير والإلقاء الأقوى تأثيرًا، وإن كانت معظم تلك الآراء – على نحو ما بين طه حسين في دراسته "تمهيد في البيان العربي" – قد ضرب عنها كتاب الدواوين صفحًا، هؤلاء الكتاب الذين لم يثبتوا فيما كتبوا على الطريقة التي اتبعوها دائمًا[٧].

وفقًا لكتاب "نقد النثر" الذي اقتبس منه اقتباسًا واسعًا في هذا الجزء، تعد المجادلة نمطًا من الخطاب الذي يقصد إلى إقامة الحجة لتقرير الاختلافات في المعتقد بين أولئك الذين يشتبكون في جدل. تستخدم المجادلة في المذاهب الفكرية والمحاجات الدينية والإجراءات القانونية (في النزاعات والمرافعات). وتقع المجادلة في كل من النثر والشعر. وتنقسم المجادلة إلى مجادلة محمودة ومجادلة مذمومة. يقصد النوع الأول إلى تأييد ما هو صحيح وقائم على الحق. أما النمط الثاني – من الناحية الأخرى – فهو ما يراد به المماراة وطلب السمعة[٨].

ليست هذه هي الحال مع العرض (أو "البحث). يبنى العرض الصحيح مقدماته المنطقية على ما هو آلف مباشرة لعقل المؤول؛ لأنه ينشد الحقيقة ويقصد إلى غاية التبيين والبيان، غير ملتفت إلى موافقة خصمه[٩]. وربما كان من النافع في هذه المرحلة أن ننظر إلى اقتراحات "نقد النثر" التي تتصل بالمجادلة في حدود نموذجنا عن أنماط النص، على نحو ما أوجزناه في المدخل.

تبدأ نصوص العرض expository بجملة محورية وظيفتها تركيز المشهد. تعرض جوانب المشهد إذن دون تقويم unevaluatively. هدف مثل هذه النصوص هو تحليل التصورات، والحكي، والوصف، وربما الجمع بين هذه الأهداف التواصلية الثلاثة. من الناحية الأخرى، تنطلق المجادلة بمركب نغمي Tone-Setter وظيفته عرض موضوع الجدال عرضًا تقويميًا. يهدف العرض – بمصطلح علم لغة النص المعاصر – إلى التنبيه إلى الموقف. وتهدف المجادلة إلى ربط مستخدم النص بالموقف، حتى يسوسه على المنحى الذي يوافق مقاصد منتج النص(١٠).

بلاغة دفع الدعوى:

مهما يكن من أمر، فإن نواة نموذج المجادلة في "نقد النثر"، هو تحليل بلاغة دفع الدعوى Rhetoric of Rebuttal، والتي تسمى باسم "الجدل والمجادلة"، أو ما اصطلحنا على تسميته بـــ "المجادلة المضادة Counter-Argumentation". ويمكن أن يتضح هذا من اللغة الإنجليزية من خلال نص كالآتي:

نص أ:

نص حكم كاهان وملابساته:

يعزى كثير من الفضل إلى دولة إسرائيل لما اتسم به حكم لجنة كاهان للتحقيق من قوة وصراحة ما انتهت إليه من أحكام. فليست هناك دولة أخرى في الشرق الأوسط ولا في دول أخرى عدة خارج هذه المنطقة، يمكن أن تخضع حكامها لمساءلة من مثل هذا النوع. ففي لبنان (التي ارتكبت فيها المذابح على أيدي مواطنيها) لم يتوصل في تحقيق مماثل إلى نتائج ملموسة. غير أن الفضل يعود إلى الدولة، وليس إلى الحكومة التي رفضت بادئ ذي بدء التحقيق. حتى لا تفضح ضلوعها في المذابح. (المقال الافتتاحي لجريدة الجارديان).

يصنع ما أعلنه أحد المعارضين (مكتوبًا بالخط المعتاد) والمعارضة التي تلت إعلانه (مكتوبة بخط ثقيل)، يصنعان الوسيلة في المجادلة المضادة التي يجيدها المتجادلون في التقليد البلاغي الغربي (والتي تعرف باسم لعبة الولاء الكاذب Strawman Gambit). على أي حال، فهذه منطقة صماء لمستخدم الإنجليزية العربي. ولبيان المشكلة من خلال حقل تدريب المترجمين الذي أنا مستغرق فيه، دعنا نتأمل النص " أ " السابق. كان من إساءة الحكم على قوة الدفع الرئيسة التي تدفع المجادلة المضادة في النص، أن غالبية مجموعة العرب المتدربين على الترجمة من الخريجين، قد أخفقوا في المفهوم المفتاح "غير أن"، وأنتجوا ترجمة معيبة عيبًا خطيرًا، ذكر فيها أن الفضل يعزى – عن استحقاق – إلى إسرائيل...إلخ؛ أي أنها مقالة افتتاحية مساندة لشارون وليست ضده!

الغرض من هذه الطرفة التعليمية هو التمهيد لنظرية "نقد النثر" في المجادلة المضادة، التي تعدّ المحاولة الرائدة في التعرف على استعمال هذه الاستراتيجية الجدالية ومناقشتها وتوصيفها. يصف المؤلف المجادلة في الحدود التالية:

"المجادلة الحقيقية هي التي تبنى مقدماتها المنطقية على ما يوافق عليه الخصم. المجادلة أعظم أثرًا في إلزام الخصم الدليل من قوله الخاص". بعبارة أخرى، لما كان قصد المجادلة هو أن يقود خصمه إلى قبول الدليل المطروح، فإن عرض الدليل الذي يؤخذ من قول الخصم نفسه، سوف يصبح – على نحو مؤكد – الطريقة الأعظم تأثيرًا في إنجاز غايات المجادل(١١). في بيان استخدام هذه الوسيلة، يستشهد المؤلف بقوله تعالى: **"كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تُنَزَّل التوراة، قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين"** (١٢).

في "نقد النثر" شرحت هذه الآيات هكذا:

"جادل الله الخصوم بذكر كتابهم الذي يقرون به والذي يتضمن هو نفسه انتقادات لما يجادلون فيه" (١٣).

يعني المؤلف بالإشارة إلى أن ذكر كلام الخصم، ليس يخلو جملة من دوافع خفية: فمنتج النص يذكر كلام خصمه على نحو لا يفضح اعتقاده الراسخ فضحًا شديدًا، حتى يجعل دفاع الخصم اللاحق عن موضوعه غير مؤثر. من ثم يعرض محتوى الاقتباس من قوله في جو من الرفض المراوغ، حتى يفضح ثرثرته الفكرية، وينشر حوله حلقة من الغموض. بعبارة قدامة: "المجادلة أعظم تأثيرًا في إلزام الخصم الحجة من قوله، حتى وإن لم يكن هذا في نهاية الظهور للعقل"(١٤).

إن هذا لهو الإدراك الأقوم لغموض الكيفية التي يستند بها إلى قول الخصم من غير أن تسلم به أيضًا. وهذا ماعرفه البلاغيون العرب القدماء وحللوه تحليلاً واضحًا. وهذه هي العلامة التي تدمغ المجادلة المضادة في لغات مثل الإنجليزية، وهي – على النحو الذي أبان عنه النص " أ " آنفًا – الزُّبية Pitfall عند كثير من مستخدمي العربية المعيارية المعاصرة.

العلة في المجادلة:

من الوجوه الأخرى لنموذج المجادلة في "نقد النثر" ما يسمى بالعلة. والعلة مفهوم سوف أبقي عليه في كتابته كتابة صوتية، وأعرفه هنا بأنه "البرهان المدعم تدعيمًا منطقيًا". وربما كان من المفيد – قبل أن نشغل أنفسنا بالتفاصيل المكونة لمفهوم العلة – أن نقارنه بالفكرة الأرسطية المألوفة عن "القياس المنطقي Syllogism": والقياس المنطقي بنية ثلاثية العناصر. يتوصل إلى صحة النتيجة فيها (مثل: سقراط ميت) من خلال مجاورتها المقدمة المنطقية الكبرى (كل الناس ميتون) والمقدمة المنطقية الصغرى (سقراط إنسان). استخدمت كوتش Koch (بعد تولمين Toulmin)(١٥) القياس المنطقي ثلاثي العناصر، في هيئة الاصطلاحات: (المعطيات Data) التي تناظر المقدمة الصغرى (مثل: السماء تثلج)؛ و"الدعوى Claim" التي تناظر النتيجة ("إذن ربما يصل ضيوفنا متأخرين")؛ و"العلة Reason" التي تناظر المقدمة الكبرى ("لأن الناس يتأخرون غالبًا عندما تثلج").

بناء على ذلك، يمكن أن تفهم "العلة" في "نقد النثر" في حدود ذلك العنصر من القياس المنطقي الذي يضم "العلل Reasons" و"علل العلل Reasons for Reasons"حتى نبلغ النقطة التي لا توجد عندها علل أخرى.

لأداة الاستفهام "لم" عند قدامة، مكانة عزيزة بين أدوات الاستفهام الأخرى. تستمد المجادلة صحتها من "العلة"[١٦]. ويلتزم منتج النص بأن يقدم العلل (وعلل العلل إذا اضطر) تلك التي صنعت إخباره من قبل. إذا كف مثل هذا الالتزام عن الظهور، فلا ضرورة بعد للإثبات بالحجة Substantiation. على أي حال، فإن العجز عن ملاحظة تلك المبادئ العامة لن يفضي إلا إلى مجادلة معيبة.

ويكمل قدامة:

"يقع طلب العلة على أحد وجهين: إما أن تطلبها وأنت لا تعلمها لتعلمها، وإما أن تطلبها وأنت تعلمها ليُقرّ لك بها. ولكن في كلتا الحالين، ليس لك أن تجادل أحدًا في شئ يدعيه إلا بعد أن تسأله عن العلة فيما ادعاه فيه. فإذا كان علمك بعلته ناشئًا عن مذهبه أو عقيدته، فالأحوط أن تقرره بالدليل على ذلك (أعني على مذهبه) حتى لا يتنصل عن بعض ما ينتحله أهل مذهبه أثناء جدله، معلنًا أنه يخالفهم فيها، فإذا أمنت منه تلك الحالات، فليس لك أن تسأله حتى وإن لم تقرره بعلة دعواه.

ونوعان آخران من الناس لا يلزمك منهما سؤال، ولا يجب عليك لهما جواب عن علة دعواك:

(١) شخص يسأل عن علة دعواك فتخبره بها. وبعد ذلك يطالبك بعلة للعلة. لا يلزمك هذا جوابًا، فسؤاله باطل؛ وذلك أنه يدوم في مطالبته بعلة للعلة إلى ما لا نهاية.

(٢) وشخص يريد مناقضتك في أسس دعواك، من غير أن يجعل أسسًا لما ناقضك فيه[١٧].

أنماط العلل ووجوهها:

يمضي مؤلف "نقد النثر" إلى تحليل الأنماط والوجوه المتنوعة للعلل على النحو التالي:

""يمكن التمييز بين نمطين اثنين للعلة، قريبة Intimate وبعيدة Remote. ترتبط العلة القريبة بالشخص الذي يستخدمها، أما العلة البعيدة فما كان بينها وبينه غيره[١٨].

وللعلل وجوه عدة:

(١) الاعتبار Status: فإذا كانت العلة ثابتة في محتواها الإعلامي Informational Content، كانت صحيحة، فإذا لم تكن كذلك، فليست بصحيحة.

(٢) العلة المانعة Exclusivity: فالعلة التي تثبت أن شيئًا ما صحيح. ينبغي لها أن تثبت بطلان ضده.

(٣) الاجتماع Integrity: وذلك أن موضوع العلة إذا كان قائمًا على اجتماع شيئين أو أكثر، لا تجب العلة مع انفراد أحد تلك الأشياء بها. بعبارة أخرى: لا يمكن أن تنتج العلة عن شئ مفرد، ما دام كل شئ مفرد لا يكفي في ذاته.

(٤) الخلو من الخطأ Infallibility: فإذا كانت العلة مأخوذة مما يوافق الخصم عليه، فهي إذن خالية من الخطأ. وإذا كانت العلة – من ناحية أخرى – مأخوذة مما يخالف فيه الخصم، فلا يمكن أن تحتج عليه بها إلا بعد أن تعلمه أن هذه العلة مأخوذة مما يخالف فيه. وكذلك لا سبيل للمجادلين إلى تصحيح العلة إلا بعد أن يصححوا المقدمات المنطقية التي أوجدوها.

(٥) قابلية الجدل Contestability: فالجدل في العلة ماض في كل ما يخالفك فيه خصمك، فإذا انتهيت إلى ذلك الشئ الذي يوافقك عليه الخصم، فليس لك أن تجادله فيها، وإلا كنت مجادلاً نفسك. على أي حال، فإن لك

أن تجادل في العلة، في تلك المواقف التي ترمي فيها إلى أن تقرره بها، ثم تأخذ الخصم بإهمالها، حكمه حكم ما وافقك فيه.

(٦) قابلية المعارضة Opposability: فالمعارضة في الجدل صحيحة، وإن كان بعضهم يرفضها على أساس عدم جدواها. على أي حال، فحقيقة الأمر ليست على ما يظنون. والمعارضة ها هنا هي المقابلة بالمثل Reciprocity. ومن المناسب أن تقابل بين مسألتين وعلتيهما، ثم تطلب من خصمك أن يحكم لإحداهما على أساس ما توجيه العلة في نظيره. وكل زيادة في المسألة (أو المقدمة المنطقية) أو العلة التي من جنس المسألة، فليست بخارجة عنها. وأما ما يخالف معنى المسألة أو العلة، فهو خروج وتخليط[١٩].

المناقشة والنتائج:

في الرد ادعاء ادعاه شخص ما، بأن س (بلد عربي ما) لا حرية فيه، أثير جدل حول مرتكزات النظام العربية الملتزمة في ذلك البلد المعين على نحو ما في السطور التالية:

النص ب:

ليس س١ (ذلك البلد) ملكا لـــ ص (قائده). إنه ملك الشعب؛ لأن الشعب هو الذي ملكه من هو خادم له ومن لا يريد له إلا الخير.

وفقًا لكوتش Koch التي حللت نصًا مماثلاً للنص السابق – بصرف النظر عن قوة هذه المماثلة أو ضعفها – نرى أن الجدل في النص ب ينتهي إلى هذه النتيجة (س ليس ملكًا لـــ ص)، وذلك من خلال مجاورته المقدمة المنطقية الصغرى (ملّك الشعبُ البلدَ لـــ ص) والمقدمة المنطقية الكبرى (إذا وضع الشعب نفسه تحت حكم إنسان، فقد دل بذلك على أنه شعب حر). تلاحظ كوتش Koch أن الدعوى Claim (= النتيجة Conclusion) والمعطيات Datum (=المقدمة المنطقية الصغرى Minor Premise مترابطة من خلال مفهوم الحرية الذي لا نألفه على هذا النحو في

الغرب). الصعوبة التي تواجهنا في هذه الفكرة هي: ما الذي يجعل من الغريب أن نسمع المبادئ المقررة في الكتلة الشرقية وهي تدعي أن دولها دول حرة، وأن فكرة الحرية تحتل عندها قلب الجدل في الطقوس الدينية والبرامج المضادة؟[٢٠].

الأمر طيب إلى هذا الحد، ولكن يبدو أن كوتش وثلة من الآخرين الذين يكتبون في البلاغة التقابلية Contrastive Rhetoric[٢١] يدلون دائما على أن هذا النوع من التعليل الذى لا يتوازن جانباه Lopsided Reasoning مميز للعقل العربي، وأنه – في النهاية – قابل للتفسير في حدود اللسان العربي الذي يتسم بالغموض الفكري Ideational Vagueness والصرامة الشكلانية Formalistic Regidity، والذي يعمل فيه الإقناع عمله الجمالي (أي يعمل عمله بالعرض Presentation لا بالبرهان Proof)... الخ.

ويندر – إن لم ينعدم – أن نصادف لومًا يلحق بذلك الذي ينبغي له أن يكون عليه اللوم: أعني مستخدم اللغة غير الكفء Incompetent Language User. إن أنواع الفشل الاتصالي التي أبانت عنها النصوص أ و ب آنفًا، هي – على غاية الدقة – الأنواع التي تساعدنا في تفاديها قراءة كتاب مثل "نقد النثر" قراءة فاحصة. في هذاالكتاب، يظهر جليًا تشريح المجادلة المضادة، وربما كانت نظرية العلة من أقوى تحليلات عملية التعليل سفسطة منذ أرسطو.

ولا جرم أن ما رأيناه الآن يعد حالة من الحالات التي يكون فيها وضع المصادر النصية Textual Resources في موضع بعينه عملاً فارغًا من القيمة إلى حد ما. إن نصوص المجادلة من النمط الذي بينه النص أ آنفًا، واستخدام الجدل استخدامًا كفؤًا (وهو مفتقد افتقادًا بينا في نمط التعليل الذي عرضه النص ب) مما نجده في خطاب العرب من ذوي التعليم الغربي وعند أولئك المتضلعين في البلاغة العربية القديمة. ويندر أن نجد عند غيرهم مثل تلك النصوص وذلك الاستخدام. هذه الظاهرة ليست أزلية وليست مفردة. ولذا يمكن أن تفسر في إطار اللغة في الحياة الاجتماعية.

وليس ثبات الاستراتيجيات الحيوية للمجادلة في العربية مما يقبل التحليل في حدود أي قصور ذاتي في نظام لغوي مثل هذا، بل يقبل التحليل في حدود العلاقة المعقدة بين اللغة والمجتمع، بين الخطاب والأيديولوجيا.

على سبيل الإجمال عرضت في هذا البحث نموذجًا لأنماط النص، ميز بين شكلين رئيسين: العرض المجرد detached Exposition والمجادلة التقويمية Evaluative Argumentation. وقد كان هدفي الرئيس هو أن أميط اللثام عما تعرب عنه العربية من تفضيل نوع من المجادلة تفضيلاً خاصًا، نوع يدافع فيه المجادل عن موقف أو يستنكره، من غير أن يبدي قبولاً صريحًا بما يمتدحه الخصم من معتقد. وفي الوقت الذي يسترعي فيه هذا الشكل من المجادلة نظرنا بما فيه من تفكك الرابطة المنطقية بين قضية وأخرى، فإنني أرى أن استعمال العربية استعمالاً أخرق Inept Use of Arabic – مع جملة من العوامل والظروف السياسية – الاجتماعية – مما ينبغي له أن يلقي عليه باللوم، لا على العربية ذاتها. والحق أن البلاغة العربية في العصور الوسطى كانت الرائدة في التعرف على نصوص المجادلة المضادة من النمط: "دعوى ضد دعوى" وتحليلها، كما كانت رائدة في التعامل مع التعليل المنطقي تعاملاً سديدًا.

الهوامش

(١) B. Hatim: Argumentative Styles across Cultures, in: R. Kolmel and J. Payne (eds.) Babel: The Cultural and Iinguistic Barriers Between Nations, Aberdan Univrsity Press (1989)

(٢) قدامة بن جعفر: نقد النثر، بيروت – دار الكتب العلمية ١٩٨٣. وهناك خلاف في تأليف هذا الكتاب. ويكاد يكون من المؤكد الآن أن المؤلف الحقيقي كان معاصرًا لقدامة، وهو أبو الحسين اسحق ابن إبراهيم بن سليمان بن وهب، وأن العنوان الصحيح للكتاب هو "البرهان في وجوه البيان" (انظر مقدمة نقد الشعر، تحقيق/ محمد عبد المنعم خفاجي – دار الكتب العلمية – بيروت، وأنا مدين للأستاذ/ ج. د. لاثام Latham على توجيه انتباهي إلى تلك المسائل). على أي حال، فقد كان مناسبًا لي هنا أن أعود – في إيجاز – إلى العنوان الأشهر في هذه المقالة.

(٣) السكاكي: مفتاح العلوم، بيروت – دار الكتب العلمية ١٩٨٣.

(٤) B. Hatim and I. Empson Discousrse and the Translator. London. Longman 1990.

(٥) Aristotle: Art of Rhetoric. Translated by J. J. Freese. London. Heinemann 1967.

(٦) Ibid, p. 22

(٧) طه حسين: تمهيد في البيان العربي، في مقدمة نقد النثر.

(٨) يشير المؤلف إلى قول قدامة: "وأما الجدل والمجادلة فهما قول يقصد به إقامة الحجة فيما اختلف فيه اعتقاد المتجادلين. ويستعمل في المذاهب، والديانات، وفي الحقوق، والخصومات، والتنصل في الاعتذارات، ويدخل في الشعر والنثر. وهو ينقسم قسمين أحدهما محمود، والآخر مذموم. فأما المحمود فهو الذي يقصد به الحق ويستعمل به الصدق. وأما المذموم فما أريد به المماراة والغلبة؛ وطلب الرياء والسمعة" (نقد النثر ص١١٧) (المترجم).

(٩) أعترف بالجميل لرون باكلي Ron Buckley على مساعدته في ترجمة الأجزاء المطلوبة من "نقد النثر" (ص١١٧ – ١٢٣). ويشير المؤلف في هذه العبارات إلى قول قدامة: "حق الباحث أن يبني مقدماته مما هو أظهر الأشياء في نفسه وأبينها لعقله؛ لأنه يطلب البرهان، ويقصد لغاية التبيين والبيان، وألا يلتفت إلى إقرار مخالفيه فيه "(نقد النثر ص١١٩) (المترجم).

(١٠) R. de Beaugrande and W. Dressler: An Introduction to Text Iinguistics Lonkon. Longman 1981, p. 16.

(١١) يشير المؤلف إلى قول قدامة: "وحق الجدل أن تبنى مقدماته مما يوافق الخصم عليه..." (نقد النثر ص١١٩) (المترجم).

(١٢) آل عمران، آية ٩٣.

(١٣) النص في "نقد النثر ص١٢٠" هكذا: "فجادلهم بكتابهم الذي يقرّون به وبفرض ما فيه ووجوبه عليهم؛ وأعلمهم أنهم إذا حرموا على أنفسهم ما لم يحرمه الله في كتابهم الذي هذه سبيله في وجوب التسليم له فقد ظلموا واعتدوا، وهذا لازم لهم" (المترجم).

(١٤) وعبارة قدامة هكذا: "وحق الجدل أن تبنى مقدماته مما يوافق الخصم عليه. وإن لم يكن في نهاية الظهـور للعقل" (نقد النثر ص١١٩) (المترجم).

(١٥) S. Toulmin: The Uses of Argument, C U P. 1958.
عن: B. Koch: Arguments with Khomeini Text 1986.

(١٦) لعل المؤلف يلمح إلى قول قدامة: "وأنواع البحث والسؤال تسعة أنواع، فأولها البحث عن الوجود ب "هل"... والتاسع البحث عن علل الموجودات ب "لم". وليس يقع الجدل بالحجة إلا في العلة، ولا يجب الحق والباطل إلا فيها" (نقد النثر ص٢٦-٢٧، وقوله: "إن الجدل إنما يقع في العلة من بين سائر الأشياء المسئول عنها" (المرجع السابق ص١٢٠) (المترجم).

(١٧) قال قدامة: "وطلب العلة يكون على وجهين: إما أن تطلبها وأنت لا تعلمها لتعلمها: وإما أن تطلبها وأنت تعلمها ليقرّ لك بها، وليس لك أن تجادل أحدًا في حق يدّعيه إلا بعد

مسألته عن العلة فيما ادعاه فيه، فإن كان علمك بعلته قد تقدم في شهرة مذهبه، فالأحوط أن تقره بما بنى عليه أمره لئلا يجحد بعض ما ينتحله أهل مذهبه إذا وقف عليه الكلام ويدعي أنه مخالفهم فيه؛ فإن أمنت ذلك منه فلا عليك أن تجادله وإن لم تقرّ بعلته. واثنان لا يلزمك منهما سؤال، ولا يجب لهما عليك جواب. أحدهما من سألك عن العلة في شئ ادعيته فأخبرته بها، وهي مما يجوز أن يعلل ذلك الشئ بمثله؛ فطالبك بعلة للعلة، فمطالبتك في ذلك غير لازمة، ومسألته ساقطة، والآخر من أراد مناقضتك في مذهبك ولم ينصب لنفسه مذهبًا يجب له عليك فيه بمخالفتك إياه المخاصمة، فليس تلزمك له حجة في ذلك ولا يجب عليك فيه سؤال" (نقد النثر ص١٢٠-١٢١) (المترجم).

(١٨) قال قدامة: "والعلل علتان: قريبة، وبعيدة، فالقريبة ما كان المعلول واليها. والبعيدة ما كان بينه وبينها غيره؛ وذلك كالولد الذي علته القريبة النكاح، وعلته البعيدة والده" (نقد النثر ص١٢١) (المترجم).

(١٩) قال قدامة: "وللعلل وجوه: منها اعتبارها، فإن اطردت في معلولاتها صحت، وإن قصرت عن شئ من ذلك علم أنها غير صحيحة... و(منها) أن تكون العلة في حصة الشئ هي العلة في بطلان ضده، إذا كان ضدًا لا واسطة له... و(منها) أن العلة في الشئ إذا كانت من اجتماع شيئين أو أكثر من ذلك لم تكن واجبة إذا انفرد بعض تلك الأشياء... و(منها) أن العلة إذا كانت مأخوذة مما يوافق الخصم فيه فلا مطعن له فيها، فإذا كانت العلة مأخوذة مما يخالفك فيه الخصم، فليس يجوز أن تحتج عليه بها إلا أن تعلمه أن علتك مأخوذة مما يخالفك فيه... و(منها) أن الجدل في العلة والسؤال عنها ماض في سائر ما يخالفك فيه خصمك، فإذا صرت إلى ما يوافقك فيه، فليس لك أن تسأله عن العلة ولا أن تجادله فيها؛ لأنك حينئذ تكون مجادلاً لنفسك، اللهم أن يكون سؤالك عن العلة في ذلك لتقرره بها ثم تأخذه بطردها في شئ – وقد أباه – حكمه حكم ما وافقك فيه... و(منها) أن المعارضة في الجدل صحيحة، وإن كان قوم قد أبوها، وقالوا أنها لا مسألة ولا جواب: وليس الأمر كما ظنوا... وكل زيادة تقع في المسألة أو العلة من جنس المسألة فليس ذلك بخروج عنها، وأما ما خالف معنى المسألة والعلة فهو خروج وتخليط" (نقد النثر ص١٢١-١٢٢) (المترجم).

(٢٠) Koch (1986) pp. 175-176

(٢١) انظر:

R.B. Kaplan: Contrastive Rhetoric & the taeching of composition. TESOL. Quarterly 1. 4 (1967): 10-16

E. Shoaby: The influence of the Arabic language on the Psychology of the Arabs, Middle East Education 5 (1951) pp. 284 - 302